

إشكالية الفضاء و المكان في الخطاب النقدي

العربي المعاصر

الأستاذة : زوزو نصيرة

قسم الأدب العربي

كلية الآداب و اللغات

جامعة محمد خيضر -بسكرة (الجزائر)

ملخص:

Résumé:

Cette étude tente de révéler la problématique d'espace, qui est l'un des composants du roman. Et on va s'arrêter à ce concept essentiellement dans le discours critique arabe, pour savoir plus sa relation avec le terme Lieu.

تحاول هذه الدراسة البحث في الإشكالية التي يطرحها "الفضاء"، بوصفه أحد مكونات الرواية الأساس، إن لم يكن لبّه و بؤرته. و سنتوقف عند إشكالية هذا المصطلح في الخطاب النقدي العربي المعاصر على وجه الخصوص؛ لنثير قضية تعالقه الشديد مع مصطلح "المكان"، الذي ظل على الدوام لصيقا به.

إن الدراسات الغربية التي أقيمت حول مكون "الفضاء" وفي الحكي بخاصة لازالت في بدايتها، ولم تتطور بعد وترتق محاولة بناء أنموذج نظري متكامل، يمكن الركون إليه والاستناد عليه في تحليلاتنا للأعمال السردية، كما هو حال مقولة "الزمن" مثلا التي أرسى دعائمها جيرار جنيت (Gérard Genette)، أو كما فعل فيليب هامون (Philippe Hamon) مع مقولة "الشخصية"، فكل ما قُدم حول الفضاء الحكائي يظل مجرد اجتهادات متفرقة.

ولا نريد في هذا الصدد الخوض في تفاصيل الاختلاف الظاهر و التضارب الواضح بين تصورات النقاد و الدارسين الغربيين حول مفهوم الفضاء، على أننا نود اقتصار الحديث عن أسباب تخلف النقد العربي في طرح سؤال الفضاء، كما سنحاول الإجابة عن سؤال هام هو: ما علاقة الفضاء بالمكان؟ وستكون غايتنا من وراء ذلك فك اللبس الحاصل و الدائم حولهما وإماطة اللثام عن مصطلحين لطالما ظلا متعالقين.

1- مفهوم الفضاء و أهميته:

نقول بداءة: إن الخائض في طريق "الفضاء" سائر في درب شائك، و وعر المسالك، و غير واضح المعالم.. وهذه أولى العقبات. فالدراسات حول مقولة "الفضاء" قليلة عند المنتجين الأوائل لها؛ أي الغرب، وما قُدم لا يخرج عن كونه مجرد اجتهادات نظرية تخضع لوجهات نظر متباينة، ثم إن مصطلح "الفضاء" أساسا لم يشغل بال الدارسين انشغالهم ببقية المكونات السردية.

لقد اشتق الفرنسيون والإنجليز مصطلحي (espace) و (space) من لفظة (spatium) اللاتينية، التي تعني في الأصل الامتداد واللامحدود الذي يحوي كل الامتدادات الجزئية المحددة، في حين لم يعرف الإغريق لفظة (الفضاء)، إذ

لم تظهر في لغتهم كلمة تدل على (المكان)، إنما عرفوا لفظة (Topos) وتعني (موقع). (1)

الفضاء هو العالم الفسيح الذي تنتظم فيه الكائنات والأشياء والأفعال، ويقدر ما يتفاعل الإنسان مع الزمن يتفاعل مع الفضاء، بل يمكننا القول: إن تاريخ الإنسان هو تاريخ تفاعلاته مع الفضاء أساساً. (2)

إن تعلق الإنسان بفضائه تعلق شديد، ومنذ الأزل ارتبط البشر بالكرة الأرضية؛ بحكم جاذبيتها من جهة، ولأنها الممد الأوحى لاستمراريتها؛ بما تزخر به من عناصر الحياة من جهة أخرى. (3)

يخترق الفضاء حياة الإنسان، ويحس بكينونته أينما حلّ، ويلقي بظلاله عليه أينما ولّى وجهه. إنه يعيش فيه ومعه، ولا شيء في هذا الكون منفصل عنه ومتحرر من رقبته، ولا وجود لأي كائن دون فضاء يحويه ويلفه، بل هناك حياة أصلاً دون فضاء؟

ولعل هذا ما حدا بحسن نجمي إلى استعارة تعبير غابريل مارسيل القائل: « إن الإنسان غير منفصل عن فضائه، بل إنه هذا الفضاء ذاته». (4)

وقد يكون إحساس المبدع والفنان دون غيره بالفضاء إحساساً عميقاً. من هنا كانت علاقة الفضاء بالأدب وطيدة، بل هو المادة الجوهرية للكتابة الروائية على وجه الخصوص؛ إذ لا يخلو أي عمل من استحضار هذا المكون، الذي يعتبر السند الأساس له والملفوظ الرئيس المشكل لنسيجه. إنه إحدى هوياته التي لا يمكن إغفالها أو اختزالها، وإلا عُدّ العمل ناقصاً ومبتوراً.

وعلى الرغم من أنه مكون رئيس في حياتنا، ولا يستطيع أحد إنكار دوره الفعال، إلا أن الكتابات الغربية ذاتها وقفت حائرة تجاهه، وسلّمت بمحدودية فكرها تجاهه، و ظل بذلك عنصراً هامشياً ومقصياً ضمن حقل الانشغال

الأدبي.

وصدق الشاعر ميلوش حين قال: «تحت آلاف أفنعة الحب، الخوف، الغطرسة، التقزز، يكمن المشكل الأبدي المتعذر حله مشكل الفضاء». (5)

2- تعالق الفضاء بالمكان في الدراسات العربية:

ولج مصطلح (espace) أو (space) وهو يقابل مصطلح (الفضاء) الدراسات العربية بفعل الترجمة، التي ضمت للغتنا وأغنيتها بكم زاخر من المصطلحات الغربية ومفاهيمها.

يشيع مصطلح "الفضاء" عند النقاد الغربيين، إذ يعنونون به كتبهم ومقالاتهم، في حين يظهر مصطلح "المكان" على استحياء؛ لأداء غايات يرتضيها أصحابها، أما العرب فلا يصطنعون مصطلح "الفضاء" في كتاباتهم النقدية بخاصة، (6) إنما يحتل مصطلح "المكان" عندهم مقاما طباعيا أكبر.

كما قد يرفض البعض لفظة "الفضاء" ويرتضى تسميته أخرى، كما فعل "عبد المالك مرتاض" الذي يستعيز بها مصطلحا آخر هو "الحيز"، إذ يرى من منظور الخاص أن المفهوم الأول « قاصر بالقياس إلى الحيز؛ لأن الفضاء من الضرورة أن يكون معناه جاريا في الخواء والفرغ، بينما الحيز لدينا ينصرف استعماله إلى النتوء والوزن والثقل والحجم والشكل، على حين أن المكان نريد أن نقفه في العمل الروائي على مفهوم الحيز الجغرافي وحده». (7)

إن مشكلة الفضاء منذ البدء مشكلة عويصة، والتصورات حولها لازالت مشوشة ومضطربة عند الغرب، فلا يوجد اتفاق حول مفهومها أو وضع أنموذج نظري دقيق يبين دلالتها الحقة. ولو أن "مرتاض" أبقى على المقابل الأجنبي الأول (L'espace) أو (The Space) وترجمه بالفضاء، ونراه

أسلم مصطلح و أدقه وأوضحه، ليسر لنا على الأقل إشكالية وضع مصطلحات عديدة للفظة الواحدة، الذي سيزيد من اضطراب عملية التواصل وانعدام التفاهم بين الناس، خاصة إذا تحدثنا عن مصطلح سردي كان ولازال متشعبا وغير واضح المعالم.

إن أهمية المكان لا تخفى على أحد؛ لما يقوم به هذا المكون من دور رئيس في حياة الإنسان، فمنه ينطلق وإليه يعود، أو ليست حياتنا ككل رحلة مكانية تبدأ برحم الأم وتنتهي بالقبر.⁽⁸⁾

إن الاهتمام الكبير بالمكان يعود لحضوره الكثيف في كل مناحي حياتنا، ولعظم قدره في الحياة الإنسانية بعامة « ولعله ما من قرين للترجمة البشرية مثله، فهو عمادها ومصطلحها وهو مغذيها وهو منطلقها ومصبتها وهو ترجمتها أيضا»⁽⁹⁾

ينبه "حسن نجمي" - ونحن نبحت في قضية المكان وعلاقته بالفضاء - إلى ملحوظة نراها هامة في هذا الصدد، مفادها أن "غالب هلسا" ارتكب خطأ فادحا، حين أقدم على ترجمة عنوان كتاب (La poétique del'espace "شعرية الفضاء" لغاستون باشلار (Gaston Bachelard) إلى (جماليات المكان)، وهي الجناية الأولى التي شوهت خصوصية هذين المصطلحين، وتركت ظلالها على دراساتنا فيما بعد.⁽¹⁰⁾

وقد يستغرب كثر وضع هذا العنوان، والحال أن المقابل العربي لمصطلح "l'espace" هو "الفضاء"، كما أن المقابل العربي لمصطلح (Le lieu) هو "المكان". ومن يقارن بين عنواني الكتاب سيخرج بنتيجة واحدة مفادها قرن "هلسا" بين مصطلحي الفضاء و المكان

و اعتبارهما وفق وجهة نظره سيان و يشيران إلى مفهومين متطابقين، ولربما

كان لقصر باع النقد العربي ذاته اتجاه مقولة الفضاء الدور الأكبر في إغفال هذا الخلط وعدم تناول الأقسام النقدية له.

لقد أثبتت قضية الفضاء والمكان في ندوة "الرواية العربية" التي أقيمت بفاس سنة 1979، وذلك حين قسّم "غالب هلسا" المكان في دراسته الموسومة بـ "المكان في الرواية العربية" إلى ثلاثة أقسام هي: المكان المجازي، والمكان الهندسي، والمكان كتجربة معاشة. (11)(*)

وما كان من "محمد برادة" إلا أن دحض تقسيمه هذا قائلاً: «لا يمكن تقسيم الأمكنة أو الفضاءات (***) في هذا الحال إلى مجازية لأنها كلها مجازية لا تساوي الواقع (...). كما لا يمكن أن نقول: مكان هندسي أو مكان معاش لأن جميع الأمكنة لها أبعاد هندسية قد يصفها الكاتب وقد لا يصفها وقد يستتبطها من خلال إحساساته الداخلية، والمكان العادي يظل بدوره فضاء (...). إن هذه التضيقات (...). تعوّم إدراكنا لأهمية الفضاء». (12)

وإن حاول "هلسا" الدفاع عن نفسه وتفسير سبب اختياره ذاك قائلاً: «إن ما أعنيه بالمكان هنا هو المكان البسيط ذو الأبعاد الثلاثة: وقد اضطررت لأسباب منهجية أن أعزله عن الزمان والحركة رغم استحالة العزل فعلياً (...). أفعل ذلك لدواع منهجية لا علاقة لها بالرؤيا». (13)

لقد ظهرت فيما بعد دراسات عديدة ولعت بمقولة المكان، و عكفت على تحديد مفهومه و مدارسته، و البحث في جمالياته و شعريته حسب الممارسة النقدية لهذا الناقد أو ذاك.

و يتجلى ذلك في اطلاعنا على بعض الكتب التي تمكنا من الظفر بها، مثل "الرواية و المكان" لياسين النصير، و "جماليات المكان في الرواية العربية" للشاكر النابلسي، و "بنية النص السردي" لحميد لحمداني، و "المكان في النص

المسرحي" لمنصور نعمان الدليمي، و "فضاء النص الروائي" لمحمد عزام، و "المكان في الرواية البحرينية" لفهد حسين، و "المكان في الرواية العربية" لعبد الصمد زايد، و غيرها من الدراسات الهامة في هذا الباب.

و تؤكد هنا أن دراسات جماليات المكان أصبحت راسخة في النقد الأدبي منذ سنة 2000 حتى اليوم، و بعضها تلك الانجازات المذكور في الفقرة السابقة. و نود أن نشيد هنا بدراسة "شعرية المكان في الرواية الجديدة" لخالد حسين حسين، التي نعدها دراسة متعمقة و شاملة في بابها تنظيرا و تطبيقا لشعرية المكان و جمالياته.

وإذا كان الدارسون العرب يفضلون مصطلح المكان، و يرتضونه عنوانا لدراساتهم على حساب الفضاء، فإننا نود بداءة تقديم هذا الجدول الذي سنرصد فيه المدلولات اللغوية لمصطلحات ارتبطت بهذين المكونين "الفضاء و المكان"، مستفاعة من معجم "لسان العرب" لنخرج بعدها ببعض الملاحظات:⁽¹⁴⁾

الكلمة	المادة	مفهومها	المجلد	الصفحة
--------	--------	---------	--------	--------

157، 158	15	المكان الواسع من الأرض (..) والفضاء: الخالى الفارغ الواسع من الأرض. والفضاء: الساحة وما اتسع من الأرض.الفضاء: ما استوى من الأرض واتسع.	فضا	الفضاء
119	5	الخلا (..) وفي التنزيل: وأصبح فؤاد أم موسى فراغا، أي خاليا من الصبر (..) وطريق فريغ: واسع.	فرغ	الفراغ
310	2	خلا المكان والشيء (..) إذا لم يكن فيه أحد ولا شيء فيه، وهو خال. والخلاء من الأرض: قرار خال.	خلا	الخلاء
96	6	الملا واحد وهو الغلاة (..) وأما الملا: المتسع من الأرض.	ملا	الملا
154	1	جَلَّ البيت: المكان الذي ضرب فيه وبني. الجلَّ من الأرض ج الجلاي القطعة ذات جدار.	جلَّ	المجال
83	6	موضع لكيئونة الشيء (..) والمكان: الموضع.	مكن	المكان
185	2	حزت الأرض: إذا أعلمتها وأحييت حدودها. وحوز الدار وحيزها: ما انضم إليها من المرافق والمنافع. وكل ناحية على حدّة حَيَزَ (..) وفي الحديث: فحمت حوزة الإسلام أي حدوده ونواحيه (..) التحوَز: من الحوزة: وهي الجانب كالتتحى من الناحية (..)والحوزة: الناحية.	حوز	الحيز
484	6	وضع الشيء في المكان: أثبته فيه.	وضع	الموضع

475، 476	6	موضع لكل واقع(..) والموقع والموقعة: موضع الوقوع	وقع	الموقع
234	1	بقعة من الأرض على غير هيئة التي يجذبها (..) والبقيع من الأرض: المكان المتسع ولا يسمى بقيعا إلا وفيه شجر.	بقع	البقعة
141، 142	2	نقيض المرتحل (..) ويكون المحلّ الموضع الذي يحل فيه (..) والمحلّة: منزل القوم (..) والمحلّة جماعة بيوت الناس لأنها تحلّ (..) والحلّة: مجلس القوم لأنهم يحلون.	حلل	المحل
268، 269	1	تبوّأت منزلا أي نزلته (..) وتبوّأ المكان: حلّه (..) والبيئة (..) المنزل (..) وقيل منزل القوم حيث يتبوّأون من قبل واد أو سند جبل. وفي الصحاح: المباءة: منزل القوم في كل موضع. ويقال: كل منزل ينزله القوم.	بوأ	البيئة

إننا نلاحظ التقارب الشديد بين مدلولات الألفاظ، على أنه يمكن تقسيمها إلى قسمين أساسيين يضم الأول منه (الفضاء ← الملاء) في حين يحوي الثاني (المجال ← البيئة).

ولقد بنينا علة التقسيم السابق على خصيصتين رئيسيتين أولاهما: "محدود وغير محدود". فالفضاء يمثل الاتساع والامتداد والفراغ، إنه كل ما يحيط بنا دون أن نلمس له حدودا، فالصحراء مثلا بامتداداتها تمثل فضاء، على خلاف المكان الأضيق المعلم الموجود بكيئونة شيء ما.

أما ثانيتهما فهي: "لموس ومجسد" و"غير ملموس ومجسد". فالمكان كائن مُتجسد يتم إدراكه بواسطة الحواس أو التصور الذهني، وهذا يؤيد وجوده

واتصافه بالكينونة، ومثل هذه الصفة قد لا نستطيع إسقاطها على الفضاء. و إن نحن أرجعنا البصر إلى الورا ووجدنا أن الجدل حول وجود الفضاء في العالم القديم بدأ مع "أرسطو"، الذي اعتقد أن المادة المحسوسة و الملموسة هي المادة الأساس للكون، في حين عارض "أناكسيمند" (610 ق.م) هذه الرؤية، و دعا المادة الأولى باللامتناهي و اللامحدود. من هنا شكّل المحسوس و اللامحسوس المأزق المركزي لكل كاتب مهتم بالفضائية.⁽¹⁵⁾ و على كل سننظر نحن للفضاء على أنه أوسع من المكان وأشمل. ولنقل: إن الفضاء بامتداده واتساعه يحوي الأمكنة المهندسة. من هنا كان المكان جزءا صغيرا من الفضاء، إنه بمثابة الجزر المحددة المتوضعة على البحر الشاسع، أو هو السفن الطافية على سطحه و السابحة على مائه. وسنخالف هنا التسمية التي ارتضاها "عبد المالك مرتاض" لمصطلح الفضاء؛ لأننا نرى أن مدلولها سائر في الفراغ والخلاء والاتساع واللامحدود، في حين نلمس وضع الحدود والعلامات والتقسيم الهندسي في لفظة "الحيز"، التي نعتبرها أقل مساحة من ملفوظات أخرى أدرجناها في الجدول السابق. و إذا أرجعنا البصر إلى الورا ووجدنا أن قضية المكان شغلت علماء الفلسفة قبل "سقراط"، و إن لم تخصص له كتب محددة. و قد أشار "أرسطو" في كتابه "فن الشعر" إلى المنظر المكاني المسرحي، بوصفه أحد الأجزاء الستة التي تتركب منها المأساة، وهي: القصة، و الأخلاق، و العبادة، و الفكر، والمنظر، والنشيد⁽¹⁶⁾، فضلا عما أثاره شراح "أرسطو" عن الوحدات الثلاث.⁽¹⁷⁾ وقد استخدم الفلاسفة المسلمون مصطلح "المكان"، و أجمع معظمهم على أنه « الفراغ المتوهم الذي يشغله الجسم و ينفذ فيه أبعاده و يرادفه الحيز». ⁽¹⁸⁾

و قد التحق المكان بحقل النقد العربي في جانبه النحوي كظرف مكان، مع ما نعلمه من تقليل شأنه مقارنة بظرف الزمان⁽¹⁹⁾، أو في بعده البلاغي البسيط، كما ظهر عند "عبد القاهر الجرجاني" الذي اقترح ثلاثة تعريفات للمكان هي: المكان المبهم ، والمكان المعين، و المكان المحصور⁽²⁰⁾. ويرى "طه وادي" أن المكان -في الحقيقة- هو البيئة التي يعيش فيها الإنسان، والتي تعطيه الملامح الجسدية والنفسية، وعلى الروائي أن يهتم برسم المكان وتحديده؛ لأنه يعطي الحدث القصصي قدرا من المنطق والمعقولة.

(21)

لقد أقيمت دراسات كثيرة حول المكان الروائي، عملت على تحديد مفهومه وإظهار أهميته في العمل السردي، على أننا لا نعثر على دراسة وافية تشير إلى الفضاء وتميزه عن المكان بخاصة، كما لا يصطنع مصطلح "الفضاء" ضمن عناوين الكتابات إلا نادرا، وإن وُجد لا يلبث صاحبه أن يقرنه بالمكان، فنراه يلهج ضمن صفحات كتابه بترديده، ويغفل المصطلح الأول، والشيء ذاته نقوله عن يرضع فعلا أو بابا في كتابه عن "الفضاء"، ثم لا يتميز الفروق الدقيقة بينهما ويعتبرهما مفهومين متطابقين، ونعتبر ذلك الميزة الأساس التي تطبع الدراسات العربية التي عثرنا عليها على الأقل، وسنمثل لذلك بنماذج فقط نحصرها في الجدول التالي ونسقطها على معظم الأعمال:

صاحب الكتاب	عنوان الكتاب	النص	الصفحة
حسن بحرأوي	بنية الشكل	أما النموذج الأول وهو المكان أو الفضاء الروائي.	20

		الروائي	
163	وكما سنتعامل مع المكان أو الفضاء.	قال الروائي	سعيد يقطين
123	قدر اهتمامنا بمكونات الخطاب الروائي من تبئير أوجهة نظر وفضاء روائي (بنية المكان).	فضاء النص الروائي	محمد عزّام
85، 86	تتهض الرواية على (..) والحيز (المكان).	في نظرية الرواية	عبد المالك مرتاض
65	هناك أمكنة أو أفضية متنوعة تدخل في الفن الروائي.	المكان في الرواية البحرينية	فهد حسين
16	ولم يظهر هذا المصطلح الفضاء (المكان) في حقول الدراسات الأدبية.	المكان في النص المسرحي	منصور الدليمي
100	فالإطار الزمني يحيل لرؤيا أحادية ترتبط بالحركة وتصح عن وجه ثان يرتبط بالفضاء أو المكان (Space).	قمر القدس الحزين	ضياء خضر
116	في معالجتنا للمكان سوف نفرق بين الحيز النصي(..) وبين الحيز المكاني.	منطق السرد	عبد الحميد بورايو
443	و تقترب كلمة فضاء/مكان في المجال الفيزيائي من مدلول كلمة الطول.	تعلق الرواية مع السيرة الذاتية	عائشة الحكمي

إن ما قدمته الدراسات العربية يعد مجرد اجتهادات، و لا نحسب أن هنالك نظرية بنيوية محددة متكاملة أقيمت للمكان الروائي، أو رسّخت لنا إجراءات واضحة محددة يستطيع الناقد الاستناد إليها في أثناء تحليله بناء المكان الروائي.

على أننا ننوه في هذا المقام بثلاث دراسات تمكنا من العثور عليها و رأينا أنها أجلّ و أكثر الأعمال تناولا لقضية الفضاء الروائي في شقها النظري، تعزى إحداها لحسن نجمي في كتابه الموسوم بـ"شعرية الفضاء السردي"، الذي خصّص بابه الأول لطرح إشكالية الفضاء، مستعينا بما أبدعته الأنامل الغربية في هذا المجال، على أن مفهومه للفضاء الروائي يناقض المفهوم الذي نرتضيه له، إذ نظر له كمجموعة من التيمات والتكرارات والقضايا والأفكار والمشاهد والشخصيات التي قد تلهم مجموعة أعمال روائية، وعلى هذا الأساس أقام دراسته التطبيقية على أعمال الروائية الفلسطينية "سحر خليفة" في الباب الثاني.

نشير كذلك إلى مجهود "حسن بحراوي" في كتابه "بنية الشكل الروائي"⁽²²⁾، الذي أشار فيه إلى الدراسات الغربية التي تناولت هذا الموضوع، على أنه يقرن في مواطن كثيرة بين الفضاء والمكان، كما يصطنع مقولة "الفضاء المكاني" في غير موضع، وربما أراد بذلك -كما يفعل كثير من الدراسيين- تخصيص الحديث عن الفضاء في الرواية؛ كي لا يختلط بمفاهيم أخرى صارت منتشرة في كثير من الميادين، مثل الفضاء السينمائي أو الفضاء المسرحي.

كما أن الملاحظة التي يمكن إثباتها أيضا أنه وسم الباب الأول من دراسته لمكون الفضاء بـ"بنية المكان في الرواية المغربية" وأقام دراسته التطبيقية على

مبدأ التقاطبات.

ولا ننسى في هذا الصدد كتاب "بنية النص السردي" لحميد لحمداني^(***) الذي وإن لم يفصل الحديث نظريا عن قضية الفضاء، إلا أنه أشار إلى تباين التصورات حوله في الدراسات الغربية، كما خصص عنوانا كاملا وسمه بـ"نحو تمييز نسبي بين الفضاء والمكان"، واعتبر ذلك مجرد اجتهاد من قبله. وفي ذلك يقول: «تعتبر أغلب الأفكار الواردة تحت هذا العنوان تأملات شخصية في طبيعة الحكى، يمكن اعتبارها مجهودا خاصا في إطار البحث عن حقيقة مفهوم الفضاء وعلاقته بمفهوم المكان».⁽²³⁾

ويرى "لحمداني" أن الفضاء في الرواية يضم أمكنتها جميعا «لأن الفضاء أشمل وأوسع من معنى المكان. والمكان بهذا المعنى هو مكون الفضاء. وما دامت الأمكنة في الروايات غالبا ما تكون متعددة ومتفاوتة، فإن خفايا الرواية هو الذي يلفها جميعا. إنه العالم الواسع الذي يشمل مجموع الأحداث الروائية(..) إن الفضاء - وفق هذا - شمولي، إنه يشير إلى (المسرح) الروائي بكامله والمكان يمكن أن يكون فقط متعلقا بمجال جزئي من مجالات الفضاء الروائي».⁽²⁴⁾

نتفق هنا مع كلام "لحمداني" في فصله بين مصطلحي "الفضاء" و "المكان"، خاصة في اعتبار المقولة الأولى شاسعة، في حين تتسم المقولة الثانية بالضيق والانحسار. فالفضاء أكبر من المكان حسب رأينا.

ويمكن أن ندرج في هذا المقام - تدعيما لرأينا - مقولة نراها هامة لهيدغر (Heidegger) يحاول فيها الفصل بين المصطلحين، إذ يقول: «إن الجسر مكان وهو كشيء يصنع فضاء، فضاء تدرج فيه السماء

والأرض(..)إن الفضاءات التي تقطعها يوميا مهياة بواسطة الأمكنة التي يتأسس وجودها على أشياء هي من قبيل العمارات».(25)

إن الفضاء هنا مميز عن المكان، إنه يحوي الأمكنة جميعا ويلفها، بل إن "هيدغر" يجعل الفضاءات التي نرتادها، والتي نراها تحيط بنا عن يميننا وشمالنا ومن فوقنا وتحتنا وخلفنا، حاوية خالية ما لم تتموضع فيها هذه الأمكنة، فكأنها من تعطي لهذا الفضاء قيمته وأهميته.

إن الفضاء هو نوع من الوسط غير المحدد، حيث تتسع فيه الأمكنة، أو لنقل بعبارة أخرى:«إن الأمكنة جزر في الفضاء(..) أكوان صغرى منفصلة»(26) ، و لهذا السبب أيضا اعتبر "غوتفريد لايبينتز" الفضاء «ناتج عن جمع الأمكنة كلها».(27)

إن كلام "لحمداني" السابق يجعلنا نستحضر تعبير "منصور الدليمي" القائل:«إن الفضاء قد تداخل ضمنيا مع المكان وتشربه وتغلغل فيه»(28)، وعلى هذا الأساس فإن ما قدّمه "لحمداني" هو المفهوم الأوحد الذي التصق بأذهان الدارسين العرب، فدأبوا على ربط الفضاء بمجموع أمكنة الرواية، وجعلوا مفهومه أوسع من المكان وأشمل، وانكبوا على البحث عن جماليات المكان مركزين في أغلب الأحوال على قضية التعارضات المكانية.

ويجاري "سعيد يقطين" مثلا "حميد لحمداني" في تمييزه بين المصطلحين حين يقول:«إن الفضاء أهم من المكان، لأنه يشير إلى ما هو أبعد وأعمق من التحديد الجغرافي، وإن كان أساسيا، إنه يسمح لنا بالبحث عن فضاءات تتعدى المحدود والمجسد لمعانقة التخيلي والذهني ومختلف الصور التي تتسع لها مقولة الفضاء».(29)

يجعل "يقطين" من مقولة الفضاء بؤرة واسعة حاوية لمفاصل المكان،

الذي يشير إلى حيز ضيق محدود الأبعاد، على أنه يعتبره أحد الركائز الأساس المشكلة للفضاء.

و في المضممار ذاته تقول "عائشة الحكي" : « كثرة الأمكنة و مجموعها منطقيًا تستدعي أن نطلق عليها(الفضاء)». (30)

من هنا كان المكان البنية الصغرى المحدودة مثل المقهى والبيت، في حين يمثل الفضاء البنية الكبرى الواسعة والشاملة التي تحوي جميع الأمكنة المتخيلة والمرجعية والمبثوثة جميعا على امتداد النص. (31)

ويتكرر المفهوم ذاته عند "محمد عزّام" حيث يقول: « يمكن اعتبار الفضاء الروائي هو مجموع الأمكنة المحددة جغرافيا، والتي هي مسرح الأحداث وملعب الأبطال». (32)، و شبيهه قول "سمر الفيصل" : « و نقصد بالفضاء الروائي أمكنة الرواية جميعها». (33)

إن الفضاء الروائي لا يقتصر على هذا الأمر فحسب، بل ينبغي ربطه على الدوام ببقية المكونات الحكائية المشكلة لنسيج النص السردى.

ومن عناصر الفضاء الروائي الزمان والمكان (34) (***)، والفضاء يحوي أشياء متباينة ومتعددة بدءا من المساحة الورقية التي يتحقق عبر بياضها جسد الكتابة، إلى المكان والزمان و اللغة و الأحداث و كل ما يجسد عالم الرواية (35)، إنه مجموعة العلاقات الموجودة بين الأماكن والأحداث والشخصيات التي يستلزمها الحدث من راو يقص الحكاية وشخصيات فاعلة ومشاركة في خضمتها. (36)

لقد اقتصرَت الدراسات العربية على هذا المفهوم لمقولة الفضاء؛ إذ لم تر فيه سوى أمكنة محددة بكل جغرافيتها وأشكالها الهندسية، مقرونة ببقية العناصر الحكائية التي تلتف مع بعضها مشكّلة عالم الرواية.

ونحسب أن هذه النظرة وجيهة إلى حد بعيد، فإذا كنا نتحدث عن الفضاء في الرواية لربطناه منذ البدء بالجانب اللغوي كما هو مجسد ضمن الأبحاث الغربية، ولوجدنا أن قيمته تتحدد أساسا بمدى تعالقه ببقية المكونات، ولاعتمدنا أيضا على الثنائيات كأكبر خصائصه، وبهذا سيرتبط مفهومه بالمكان أكثر. ويمكن أن نشير بعد كل هذا إلى الإشكاليات التي يطرحها مفهوم الفضاء في الدراسات العربية:

- نعتقد أن تخلف مقولة "الفضاء" ترجع أساسا إلى تخلفها في الدراسات الغربية، والحال أن نقدنا العربي ظل تابعا لما يفرزه الآخر.

- اختلاف التصورات حوله باختلاف النظرة إليه، ونظن أن الخلاف كان غربيا بالدرجة الأولى، على أننا نضيف لذلك قضية ترجمة النصوص الغربية، التي نحسبها تخضع في كثير من الأحيان لوجهة نظر صاحبها ورأيه الخاص، لذا فإننا نعتبر أن أولى المشكلات عدم الإلمام بلغة الغير وامتلاك معرفة شاملة بكل ما يتعلق بالمصطلحات في مجال اختصاصها، لذا وجب التبحر بدءا في ميدان المعرفة السردية والإلمام بكل خصوصياتها؛ لأن إغفال هذا المبدأ سيكون له عواقب وخيمة، إذ ستشوش الأذهان و تزيد العراقل و سينعدم التواصل و التفاهم بعد ذلك.

- نظن أن قضية التمييز بين مصطلحي الفضاء و المكان عند العرب لم تكن من أولويات اهتمامهم، إذ لم يكن ليهمهم الفصل بينهما.

- قلة إلمام دارسينا بموضوع الفضاء كما ظهر عند الغرب، و عدم امتلاكهم آليات منهجية و مفاهيمية دقيقة لمقاربة مكون متشعب و معقد مثل الفضاء- بإقرار الغرب أنفسهم- و لهذا السبب قرنوه بالمكان - كما تمثله البنيويون- الذي يشير على الأقل إلى مدلول ظاهر و صريح.

و يبقى الفضاء دوما مرتبطا بشيء وهمي مطلق رمزي، إنه يحيط بالكل، بكل الأمكنة على الأقل، لكن لا نعثر له على تواجد حقيقي، إنه يوجد في اللامكان، و هو كائن زئبقي لا يمكن الإمساك بكنهه، و بذلك ظلّ المشكل الأبدي الذي استعصى حله بيد منتجيه الأوائل الذين سلموا بمحدودية فهمهم تجاهه، و ألقى الأمر بظلاله أيضا على الدراسات العربية التي لم تجد بدا غير قرنه بالمكان.

المواش و المراجع

- (1) ينظر: أكرم اليوسف، الفضاء المسرحي " دراسة سيميائية"، دار مشرق-مغرب، دمشق، (د.ط)، 2000، ص 25.
- (2) حسن نجمي، شعرية الفضاء السردية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2000، ص 32.
- (3) ينظر: محمد سويرتي، النقد البنيوي والنص الروائي " نماذج تحليلية من النقد العربي 2- الزمن- الفضاء- السرد"، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط 2، (د.ت)، ص 76.

- (4) حسن نجمي، شعرية الفضاء السردية، ص 40.
- (5) المرجع نفسه، ص 36.
- (6) ينظر: عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية "بحث في تقنيات السرد"، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998، ص 141، 142.
- (7) المرجع نفسه، ص 141.
- (8) ينظر: فهد حسين، المكان في الرواية البحرينية "دراسة نقدية"، فراديس للنشر و التوزيع، البحرين، ط1، 2003، ص 66.
- (9) عبد الصمد زايد، المكان في الرواية العربية "الصورة و الدلالة"، كلية الآداب منوبة، دار محمد علي للنشر، الجمهورية التونسية، ط1، 2003، ص 7.
- (10) ينظر: حسن نجمي، شعرية الفضاء السردية، ص 42.
- (11) غالب هلسا، "المكان في الرواية العربية"، مجموعة من الباحثين، الرواية العربية "واقع وآفاق"، دار ابن رشد للطباعة والنشر، ط 1، 1981، ص 217-225.
- (*) يذكر محمد عزّام أن دراسة هلسا هي أول دراسية عربية نهت النقاد والباحثين إلى أهمية المكان في الإبداع الروائي العربي. ينظر: محمد عزّام، فضاء النص الروائي "مقارنة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان"، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 1996، ص 55.
- (**) يقرن النقاد العرب بين مصطلحي "الفضاء" و"المكان" ويجعلانهما سيان، وسنوضح هذه الفكرة لاحقا.
- (12) مجموعة من الباحثين، الرواية العربية "واقع وآفاق"، (ضمن مناقشات ملتقى الرواية العربية الجديدة)، ص 396.

- (13) المرجع نفسه، ص 400.
- (14) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، 1997.
- (15) ينظر: جوزيف. إ. كيسنر، شعرية الفضاء الروائي، ت/ لحسن احمامة، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، بيروت، (د.ط)، 2003، ص 18.
- (16) أرسطو، فن الشعر، ت/ عبد الرحمان بدوي، دار الثقافة، بيروت، ط2، 1973، ص 20.
- (17) منصور نعمان نجم الدليمي ، المكان في النص المسرحي، دار الكندي للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 1999، ص 15.
- (18) فهد حسين ، المكان في الرواية البحرينية ، ص57.
- (19) حسن نجمي ، شعرية الخطاب السردي ، ص37.
- (20) يعرف الجرجاني المكان المبهم بأنه مكان له اسم نسميه به؛ بسبب أمر غير داخل في مسماه مثل الخلف و الأمام ، فإن تسمية ذلك المكان بالخلف إنما هو سبب كونه الخلف من جهته، و هو غير داخل في مسماه ، أما المكان المعين فهو عبارة عن مكان له اسم سمي به ؛ بسبب أمر داخل في مسماه مثل الدار ، فإن تسميته بسبب الحائط و السقف و غيرهما، و كلها داخلة في مسماه، في حين يعني المكان المحصور السطح الباطن من الجسم الحاوي المماس للسطح الظاهر من الجسم المحوي . ينظر : أكرم اليوسف، الفضاء المسرحي، ص 23.
- (21) طه وادي، دراسات في نقد الرواية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ط)، 1989، ص 39.
- (22) ينظر: حسن بحرأوي، بنية الشكل الروائي "الفضاء، الزمن، الشخصية" ،المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط2، 1990.

- (***) يرى كثير من النقاد العرب أن لحمداني سبق غيره إلى معالجة الفضاء الروائي. ينظر: صالح إبراهيم، الفضاء ولغة السرد في روايات عبد الرحمان منيف، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2003، ص7.
- (23) حميد لحمداني، بنية النص السردية "من منظور النقد الأدبي"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط3، 2006، ص62.
- (24) المرجع نفسه، ص63.
- (25) محمد بنيس، الشعر العربي الحديث بنيته وبدالاتها"3- الشعر المعاصر"، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1990، ص113.
- (26) حسن نجمي، شعرية الفضاء السردية، ص44.
- (27) جوزيف. إ. كيسنر، شعرية الفضاء الروائي، ص20.
- (28) منصور نعمان نجم الدليمي، المكان في النص المسرحي، ص23.
- (29) سعيد يقطين، قال الراوي" البنيات الحكائية في السيرة الشعبية"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 1997، ص240.
- (30) عائشة بنت يحيى الحكمي، تعالق الرواية مع السيرة الذاتية"الإبداع السردية السعودي أنموذجا"، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط1، 2006، ص443.
- (31) سلمان كاصد، عالم النص" دراسة بنيوية في الأدب القصصي فؤاد التكرلي نموذجا"، دار الكندي للنشر والتوزيع، الأردن، (د،ط)، 2003، ص165.
- (32) محمد عزام، فضاء النص الروائي، ص114.
- (33) سمر روجي الفيصل، الرواية العربية "البناء و الرؤيا مقاربات نقدية"، إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003، ص71.

- (34) أحمد المديني، تحت شمس النص "دراسات في السرد العربي الحديث"، دار الثقافة،الدار البيضاء، ط1، 2002، ص 183.
- (****) نشير هنا إلى بعض الدارسين العرب رأوا أن الفضاء الروائي يتجسد باجتماع إحدائتي المكان والزمان، أمثال عبد الحميد المحادين في كتابه(التقنيات السردية في روايات عبد الرحمن منيف) وعبد المجيد زراقت في كتابه (في بناء الرواية اللبنانية). ينظر: صالح إبراهيم، الفضاء ولغة السرد، ص8.
- (35) خالد حسين حسين، شعرية المكان في الرواية الجديدة"الخطاب الروائي لإدوارد الخراط نموذجا"، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض، (د.ط)، (د.ت)، ص 84.
- (36) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص 31.